فهو لا يهتم بالشرق أبداً ، باستثناء اعتباره له بمثابة العلة الأولى لما يقوله . إن ما يقوله ويكتبه ، بفضل حقيقة قوله أو كتابته ، يقصد منه الاشارة إلى أن المستشرق يقف خارج الشرق ، كحقيقة وجودية ومناقبية على السواء . أما النتاج الرئيسي لهذه الخارجانية فهو طبعاً التمثيل : منذ زمن مبكر يعود إلى مسرحية اسخيلوس « **الفرس** » يجري تحويل الشرق من أخرية (Otherness) بعيدة ونائية جداً وغالباً ما تكون مهددة (بكسر الدال) إلى صور مألوفة نسبياً (إلى نساء آسيويات حزينات ، في حالة اسخيلوس) . إن الفورية الدراماتية للتمثيل في مسرحية الفرس تطمس الحقيقة في أن الجمهور شاهد حدثاً مصطنعاً للغاية عما فعله شخص غير شرقي محولا إياه إلى رمز للشرق بكامله . لذا فان تحليلي للنص الاستشراقي يضع التشديد على الأدلة ، وهي أدلة غير مرئية بأية حال ، بالنسبة للتمثيلات بوصفها **تمثيلات** وليس تصويرات « طبيعية » للشرق . هذه الأدلة يمكن العثور عليها بشكل بارز في النص المزعوم (التواريخ والتحاليل الفيلولوجية والمقالات السياسية) كما في النص الفني المعترف به (أي المتخيل بصراحة) . فالأشياء التي ينبغي النظر إليها هي الأسلوب والتشابيه والاستعارات ، مكان وزمان المشهد ، الوسائل السردية الروائية ، والظروف التاريخية والاجتماعية ، وليس صوابية التمثيل ولا امانته بالنسبة لأصل عظيم . إن خارجانية التمثيل تحكمها على الدوام صيغة معينة للحقيقة البدهية القائلة إنه لو استطاع الشرق تمثيل نفسه ، لفعل ذلك . وبما انه لا يستطيع ، فالتمثيل يؤدي هذه الوظيفة ، من أجل الغرب ــ ولعدم وجود شيء أفضل من أجل الشرق المسكين (الفقير) . وكما كتب ماركس يقول في « الثامن عشر من برومير لويس بونابرت : « إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ، وينبغي لأحد ما ان يمثلهم » .

ثمة سبب آخر وراء الالحاح على الخارجانية وهو اعتقادي بضرورة توضيح المسألة التالية بالنسبة للمقالة الحضارية وللتبادل ضمن الحضارة الواحدة : إن ما يجري تداوله بصورة شائعة على يدها ليس « الحقيقة » بل التمثيلات . ولا حاجة بنا إلى التبيين والتدليل مجدداً بأن اللغة في ذاتها هي منظومة في غاية التنظيم والترميز ، تستخدم عدة وسائل للتعبير والاشارة ، وتبادل الرسائل والمعلومات والتمثيل وهلم جرا ففي أية حالة من حالات اللغة المكتوبة هي حضور للقارئ بفضل كونها قد أقصت واستبدلت أي شيء **حقيقي** مثل « الشرق » وجعلته نافلا . وهكذا فان الاستشراق بمجمله يقف من هنا فصاعداً بعيداً عن الشرق : ذلك ان كون الاستشراق ينطوي على معنى اطلاقاً يعتمد على الغرب اكثر من اعتماده على الشرق ، وهذا المعنى مدين مباشرة الى تقنيات غربية متنوعة في التمثيل ، وهي التي تجعل الشرق مرئياً وجلياً و « هناك » في المقالة عنه ، وهذه التمثيلات والتصورات تعتمد بدورها على المؤسسات والتقاليد والأعراف والمفاتيح المتفق عليها للفهم في ممارسة تأثيراتها ، وليس على شرق هلامي ونائي البعد .

أما الفرق بين تمثيلات الشرق قبل الثلث الأخير من القرن الثامن عشر والتمثيلات التي جاءت بعد هذا التاريخ (أي التمثيلات التي تنتمي إلى ما أدعوه بالاستشراق الحديث) هو أن مدى التمثيل اتسع بشكل هائل في الفترة الثانية .

ومن الصحيح أن أوروبا توصلت ، بعد وليم جونز وانكوتيل ــ دوبيرون وبعد حملة نابوليون المصرية، الى معرفة الشرق بشكل علمي اكثر ، والى أن تعيش مع هذا الشرق بمزيد من